بداخلي راقصة شرقية

كانت نصفَ مجنونة ونصف عاقلة، رُوحانية إلى أقصى درجات الصوفية، وواقعيّة إلى آخر درجات الحقيقة، حزنها يعادل بهجتها بالتساوي، وربما لو غلب نصفٌ على الآخر في وقتٍ معيَّنٍ لتوازنت حياتها. بعض من الجنون يمنح للحياة الألوان، تخيل لو كان النهارُ بلا ألوان؟ لو كان الليلُ بلا أضواء؟

بعض الخيال يمنحنا حياة. لا يزال داخلها بقايا حنين للطفولة، كلما رأت قرص الشمس يداعب عينيها؛ تبتسم وتجري، تحلق في الفضاء، تريد أن تلمس ألوان الطيف بيديها، تتراقص كأنما أصابها مسٌّ من الجنون، تتمايل في اندماجٍ، وتغطّي سحابةٌ أشعَّةَ الشمس، تنشر لونًا سرمديًّا يحمل الصفرة القانية، لون مثير، تدور وتدور؛ كأنها في فلك سماويّ، لا تلامس قدماها أرضًا، وقلبها ريشة تتهادى مع النسيم، تشم أنفاسُها عطرًا؛ لا تستطيع تحديد أصله أو مصدره، وترى عيناها نورًا ليس كمثله نور، تفتح عينيها على الواقع. تستفيق و

تهندم نفسها. بخطًى ثابتةٍ تكمل المسير، طالما حملت دواخلها الأضداد كلها، ولكنها تتصالح مع الحياة. تعمل باجتهاد كأن لا يوم قادم لتكمل فيه، تصلي في هيام، وتسجد في خشوعٍ يحسدها عليه شيخٌ جليلٌ وراهبٌ متعبدٌ لسنين.

ضوء الشمس تستمد منه طاقتها وتستفيض، ليأتي المساء بلونه الأسود البهيم، يحارب فيها هذا الضوء الخافت المنير، يحمل برودة تسري في كامل جسدها، يراود خبايا نفسها، يستنهضها للحركة، فتملأ الدّنيا رقصًا؛ تستسلم له من دونِ حرصٍ. تلفّ وتدور حتّى إن شعاع الشمس يتفجَّر منها في كلّ جانب، لتملأ الدنيا بهجة. من دونِ رهبةٍ تنطلق؛ فهي امرأة غاوية لا تجد في العشق معصيةً، لا تهدأ إلّا حينما يغمرها النور، ولم تعد قدماها تلامسان الأرض. في كلِّ مرةٍ تدور. تتمايل وتتراقص حول الضوء، كفراشةٍ تستعذِبُ الضوء. إليه تنجذب بلا إرادة ولا تفكير. ترقص وفقط تهيم. أصوات موسيقى لأغنيةٍ تحفظها. تعرف كلماتها. تُتقن الإحساسَ بها. تلامس قدماها الأرضَ، يهتز خصرها كالفحيح. تتهادى على صوت أم كلثوم:

إنت لو حبيت يومين

كان هواك خلّاك ملاك

إنت ما بينك وبين الحب دنيا

دنيا ما تطولها ولا حتى فُ خيالك

يا حبيبي لبكرة ولآخر وقتي

إيه م الأماني ناقصني تاني وانا بين إيديك

عمري ما شفت حنان في حياتي إلا حنانك

ولا حبّيت يا حبيبي حياتي إلا عشانك

تستفيق على تصفيقٍ حارٍّ، دخان سجائر، وعيون يملؤها الهوى، سكارى، كؤوس تتضارب، تحمل وشاحَها، وتحاول الفرار. تمنعها الخطيئة. تسقط في بئر الرذيلة طوعًا وحبًّا. تهُزُّ خَصرَها كلَّ ليلة. تشعل نيران الخطيئة في القلوب؛ كما كانت تضيء أنوار العشق الإلهيّ في الروح. لم تكن النهاية غريبة بِقَدْرِ جنونها؛ فقد حملت الشيء وعكسه، الإحساس وضده. وكان لا بدّ لأحدهما أن ينهيَ الصراعَ وينتصر.

انتصر شيطانُها؛ وهكذا بعض النهايات تكون.